هو العليم

هل العارف لا يهتمّ بالمسائل الاجتماعيّة؟

شرح حديث عنوان البصريّ - المحاضرة ٧٠

ألقاها

آية الله الحاجّ السيّد محمّد محسن الحسينيّ الطهرانيّ

دام ظله

@MadrastAlwahy

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا أبي القاسم محمّد

وعلى آله الطيّبين الطاهرين واللعنة على أعدائهم

أجمعين

كان البحث يدور حول تنظيم العلاقات والارتباطات، وطريقة ترتيب البرنامج خارج المنزل وداخله؛ هذا مع أنّنا لم نتحدّث بعدُ عن المنزل، حيث من المقرّر أن نتكلّم عنه قليلاً أيضاً، ونتحدّث إن شاء الله تعالى في بعض الجلسات عن كيفيّة ارتباط الإنسان بأفراد العائلة؛ أعمّ من الزوجة والأولاد والأقارب.

التوحيد هو الأساس الذي تتمحور حوله أحكام الإسلام والمعارف الإلهيّة

فالمسألة الأساسيّة والمحوريّة التي بنينا عليها البحث هي مسألة العبوديّة والتوحيد، بحيث إنّ كيفيّة تنظيم الأمور وترتيبها وتدبيرها تتمّ بواسطتها. فكما بيّنا سابقًا، فإنّ الأساس الذي تتمحور حوله أحكام الإسلام وكافّة المعارف الإلهيّة هو التوحيد؛ ففي كلّ مكان أو موقف أو موضع شعرنا بأنّ شخصًا ما أو تيّارًا ما ابتعد عن هذا الأمر، وطفق يخلط المسائل بنفسه، يتوجّب علينا أن ننتبه إلى أنّ المسألة بدأت تنحرف عن المسار الواقعيّ والطريق الحقيقيّ؛ وهذا الأمر لا يحصل للناس العاديّين فقط، بل إنّ هذه الحقيقة والواقعيّة قد تحدث حتّى للمشتغلين بهذه الأمور والعلوم والأخبار والمصنّفات؛ فلا يوجد لنا أيّ مسوّغ للقول: «مهما أنّ فلانًا له اطّلاع على هذه المسائل، فإنّه لن يُواجه فيها أيّة مشكلة، ولن يقع في أيّ مأزق». وذلك لأنّ وجدان هذه المسائل وإدراكها ينتمي إلى مقولة أخرى، وقد لا يتلازم أبدًا مع الإدراك الظاهريّ والعلوم الظاهريّة؛ هذا، مع

نودير ينيذلل ةبسنلاب أديفم نوكي دق اهيلع علاّطلا ا نّأ دئاقعلاو دعاوقلا عم مهسفنأ فييكت.

لا أعلم هل حدّثت الرفقاء بالمسألة التالية أم لا؛ فذات يوم، ذهبت في إحدى المدن لعيادة أحد المشايخ في مرضه، وكان من الأشخاص المشهورين جدًّا، وقد انتقل إلى رحمة الله، حيث كان يعقد جلسات في دروس الأخلاق، ويُقيم مجالس للذكر والتوكّل يتردّد عليها الناس، وكان كلامه جيّدًا وحديثه حلوًا. حينما جلست هناك، لاحظت أنّه يُعاني قليلاً؛ فكان من الواضح أنّ المسائل التي يذكرها تختلف من حين لآخر، وكانت طريقة حديثه تتغيّر، حيث كان يعيش حالة من المعاناة. وبعد مرور عشرين دقيقة أو نصف ساعة، جاء أحد المسؤولين الحكوميّين، وجلس هناك؛ إذ كان هو أيضًا من محبّيه؛ فما إن رآه، حتّى قال له من دون أن يلتفت إلى أنّ المجلس يحضره أفراد آخرون، وقد لا يكون من المناسب الحديث بهذا الكلام: «أيّها السيّد، إلى ماذا ستؤول القضيّة المتعلّقة بابني؟ فبعدما تبدّلت المكانة

التي يحظى بها فلان، وفقد منصبه، ما هو مصير قضيّة ابني؟ فأنا أعيش قلقًا يوميًّا عليه، بحيث لم أنم البارحة حتّى الصباح!»؛ فكنت أنظر إليه، وأقول [مع نفسي]: «هذا هو معلّم الأخلاق الذي ألهى الناس طيلة سنة كاملة بالحديث عن التوكّل!!»، حيث كان يقول: لقد استُبدل الوزير الفلاني، واستُبدل المسؤول العلاّني، وفقد منصبه»؛ فانتابني الضحك، وقلت له: «يا عزيزي، هل إنّ ابنكم ينام في الشارع، حتّى تقلق عليه؟! متى ما ألقوا به في الشارع، تفضّلوا بتقديم طلباتكم وتزكياتكم».

لئاسملا اذه ىلع علاّطلاا نّإ :هلوقديأ يذلا اذهف هذه ىلع لوصحلل ىعسي يذلل ةبسنلابً اّدجديفم ةّيهلإلا ةيانعلا مزلتذإ ؛ةلأسملا لّكلّثمُي لا هّنكل،قئاقحلا اذه يّطختن مناسنلإا نّكمتيّتح ،ىّتحيإ قيفوتلاو اهمضهو ،لئاسملا هذهب ذاتهي فقّقّتحلاو ،رملأا .اهملسو ،هسفنيف اهاجيإو

نزر من أحوال العلامّة الطهراني رضوان الله تعالى عليه في تعامله مع المسائل الاجتماعيّة

حينما رجع المرحوم الوالد رضوان الله تعالى عليه من النجف إلى إيران، فإنّه أوّلاً: كان رجوعه بأمر من أستاذه، حيث إنّ الرفقاء مطّلعون تمام على هذه القضيّة، وقرؤوها في الكتب، ووقعت أحداثها الدقيقة بالنحو الآتي: فبعدما التقى بالمرحوم السيّد الحدّاد رضوان الله تعالى عليه، وفي إحدى الزيارات التي قام بها بعد شهر رمضان لمزارات الأئمّة عليهم السلام، ذهب بداية إلى زيارة أمير المؤمنين عليه السلام، حيث أحتمل أنّه أشار إلى هذه المسألة في كتاب الروح المجرّد[1]؛ وبعد أن خرج من الحرم، التفت السيّد الحدّاد في الإيوان الذهبيّ ـ رزق الله كافّة الرفقاء الزيارة إن شاء تعالى، لا سيّما زيارة حرم أمير المؤمنين عليه السلام، حتّى يرون ما هي الأخبار والأجواء السائدة هناك، وأيّ جلال وبهاء هناك! ـ وقال له: «لقد بعثك

---

[1]. الروح المجرّد، ص ٣٩.

عليه السلام إلى إيران، وعليك الرجوع إليها، والسكن في طهران».

فجاء إلى إيران، وبدأ بمزاولة أعماله هناك، حيث استقرّ في طهران لمدّة إثنتي وعشرين سنة تقريباً؛ لكنّ أسّ المسألة يبيت القصيد يكمن في أنّه: طيلة هذه الإثنتين وعشرين أو الإحدى وعشرين سنة التي قضاها في طهران، كانت طريقة عمله وارتباطه بمحيط عمله فيما يخصّ المسجد، والجلسات، والرفقاء، والغرباء، والأشخاص الذين يترددّون عليه، ويسألونه، ويطرحون عليه الأسئلة الفقهيّة، وهكذا بالنسبة لبقيّة المسائل، حيث كنت أراه يقضي أوقاته في المطالعة بالليل، ويرجع إلى المصادر، ويستند إليها من أجل الإجابة عن الأسئلة؛ وهكذا، يُقيم جلسات للتفسير؛ وفي ليالي الثلاثاء، كان يعقد دروساً للأخلاق، ويشرح الأحاديث القدسيّة، وكذلك الشأن بالنسبة لجلساته يوم الجمعة، وفي عصر الجمعة بشكل عامّ، والخطب التي كان يلقيها من على المنبر في شهر رمضان وبقيّة الأيّام،

حيث كان يتصدّى لها في العديد من الأحيان؛ ففي جميع هذه الموارد، ولو اطّلع أحد على أحوالها، لقال: إنّ جميع همّها واهتمامها منصبّ على إدارة المسجد وتسييره، ورعاية شؤون الناس والأحبّة والرفقاء، والاعتناء بهذه المسائل؛ كما جرت العادة على العمل به في هكذا أمور. وحتّى في بعض الأحيان، كانت لها مسائل خاصّة؛ وذلك فيما يتعلّق بتردّده على المسجد، وارتباطه بالأصدقاء والمتصدّين [لإدارة المسجد]، حيث طرق أسماع الرفقاء؛ والأحبّة بعضٌ من كثير ما حصل من هذه المسائل؛ والتي لا يجوز لي حتّى أنا الإفصاح عن أحوالها فيها! إذ هي من الأسرار التي ترتبط به شخصيًّا، ولا يحقّ لي حتّى أنا الإفصاح عنها!

فبعدما سافر إلى مشهد، وتشرّف بلثم أعتاب حرم الإمام عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام، سألته ذات يوم بخصوص قضيّة معيّنة، فقال لي: «يا فلان! إنّني لم أتعلّق الإثنتي عشرة سنة التي قضيتها في طهران بذلك المسجد وتلك الأحوال، ولو بمقدار ذرّة؛ كما أنّني

لم أمكث في طهران في تلك المدّة، ولو لساعة واحدة بإرادتي واختياري؛ وقد طلبت من أستاذي عدّة مرّات أن يعفيني من الذهاب إلى المسجد، ويسمح لي بالبقاء في البيت، والانهماك في مسائلي العلميّة وارتباطاتي الشخصيّة؛ لكنّ السيّد الحدّاد لم يُوافق طيلة تلك المدّة، وكان يحثّني ويُشجّعني على المحافظة على المسجد والذهاب إليه»؛ وهذه المسألة بمثابة ردّ على الذين يقولون: «في المسائل العرفانيّة، لا ينبغي على الإنسان أن يهتمّ بشؤون المجتمع!»، حيث يوجد هناك من يدّعي هذا الأمر؛ وحتّى أنّني سمعت البعض يقول في السنوات الأخيرة من عمره الشريف: «أجل، هناك جماعة تذهب إلى بعض المدن، وتختار الجلوس، من دون أن يكون لها أيّ شغل بالناس، ولا أيّ اهتمام بالمجتمع؛ وهي تدّعي العرفان!»؛ وبالنظر إلى القرائن المحفوفة بهذا الكلام، فإنّ مراد ذلك المتكلّم من حديثه هو المرحوم الوالد قطعًا؛ مع أنّه إجحاف كبير وجهل تامّ بإنسان جعل حياته بأجمعها وقفًا في سبيل الله تعالى؛ وكيف أنّه، ومع

كلّ تلك المعاناة التي كان يُقاسيها ... ففي أحد الأيّام، قلت له: «يا سيّدي! ألم يكتمل ألبومكم الشخصيّ من الأمراض حتّى تتعرّضون كلّ يوم لمرض جديد؟!»؛ فقال لي: «أيّها السيّد! ما هي الفائدة من هذين اليومين من حياتنا حتّى نريد ... ففي نهاية المطاف، سينتهي هذان اليومان ويكتملان؛ فما هي قيمة أن نتألّم، أو لا نتألّم، أو نظلّ أصحّاء؟ وما هي قيمة أرواحنا؟! فتعال لنهتمّ بأعمالنا».

سانلابا طبتريا ميفه لاغشألّكيّدؤُيا نانكا دقلا نووشا رييدتوا تباطخلاوا ربنملاوا ثحبلاوا عمتجملاوا موحرملا هذاتسأا نمرأبا تلئاعلا روملأا رييستوا ،رسلأا روملأابامامتها نلهكنيملوا ،اًفراعنانكايذلا دّحلادّا دّيسلا ءانتعاوا ،تّيعامتجلاا بابلقاضيا لاغشاوا ،تّيملعلا تّحصا ىلعا لدي اذهو !؟مّتفتلا لها ؛تّينفلا لئاسلابا الله ءايلوأا نمّنأيلوأا نّفيكوا ،راسملا تماقتساوا قيرطلا يّوبرتلا ماظنلا تارادإا قيرطيفهذيملتعضورزّفُيىلاعتا كلذوا تّقدلا كلتوا تقيرطلا كلتبّيعامتجلاا يّاوملاسلإا

ض التوازن، ويُحذّره من عدم تحمّل مسؤوليّة بعض المسائل، حتّى يتمكّن من القيام بذلك التكليف الإلهيّ المرتبط بتبليغ الناس وإبلاغهم.

لقد كان بإمكان المرحوم العلاّمة أيضاً ...؛ فأنا لديّ اطّلاع على ذلك، حيث كنت مشاركاً في إحدى الجلسات، وكان يحضرها العديد من الأفراد؛ فتركوا الصلاة في المسجد في أوّل الوقت، لمجرّد أنّهم كانوا يشعرون بالتعب، أو مثلاً أنّ أحوالهم لم تكن على ما يُرام، وقد اجتمعوا مع بعضهم؛ فجلسوا يتحدّثون مع بعضهم، وتركوا الصلاة في أوّل الوقت، إلى أن حلّت الساعة الحادية عشرة والنصف، وهم لم يُصلّوا بعد!! فهل هؤلاء هم الذين يهتمّون بشؤون المجتمع، وأمّا الأفراد مثل المرحوم العلاّمة هم الذين اختاروا العزلة، وتنحّوا جانباً من دون أن يكون لهم أيّ شغل بالناس؟ فهل هذا هو مقتضى الإنصاف؟! فإذا كنتم لا ترغبون تكييف أنفسكم مع منهج الحقّ، لماذا تعمدون إلى استغلال الآخرين؟ فما هو ذنبكم بهم؟ إذا كنتم لا تسعون إلى

إصلاح أنفسكم، لماذا تُلصقون ذلك بالآخرين؟ ولماذا تُنقصون من هذا وذاك؟ فما هي ثمرته بالنسبة إليكم؟ هذا، مع أنّي أتذكّر أنّه حينما كان ينتهي من جلسة يوم الجمعة ... وهذا، أريد أن أحدّث الرفقاء بقضيّة تستوجب عند التطرّق لمسألة العلاقة بالمنزل، حيث كان يعقد تلك الجلسة حينما كانت بالتناوب بين منازل الرفقاء في صباح يوم الجمعة؛ وحينما انتقلت هذه الجلسة إلى مسجد القائم، صارت تُقام في الساعة التاسعة والنصف أو العاشرة، وتستمرّ إلى الظهر، ثمّ يُصلّون جماعة، ويُغادرون المكان؛ وأما قبل انتقال الجلسة إلى المسجد، حيث كانت بالتناوب، فإنّهم كانوا في تلك السنوات يأتون في الصباح، ويتناولون الفطور، ويعقدون جلسة قرآنيّة، ثمّ يُلقي المرحوم العلاّمة كلمة، ويقرأ العزاء بنفسه، ويواصل [الجلسة] أحد الأشخاص الذين لهم اطّلاع إلى حدّما؛ وقد كانت جلسة جميلة جدًّا، وكانت المدّة الزمنيّة التي تفصلها عن موعد الذهاب إلى المسجد ساعة إلى ساعة ونصف تقريبًا؛ فكان يأتي المرحوم العلاّمة إلى

المنزل في هذه الفترة، ثمّ يخرج بعد ذلك إلى المسجد؛ واحتفظوا بهذه المسألة إلى أن يأتي الوقت المناسب لكي نتحدّث عنها. وفي بعض الأحيان، كنت أرافقه إلى المسجد، فأراه يُصلّي النوافل بين اقتراب أوان الظهر، وعندما يحلّ وقت الصلاة، يأمر أحد الأشخاص بترديد الأذان؛ مع أنّه قد لا يكون بالمسجد سوى أربعة أو خمسة أفراد، ولم يأتِ الناس، ولم يجتمعوا بعدُ، حيث كان يقول: «تتعيّن إقامة الصلاة في أوّل الوقت، ولا ينبغي تأخيرها بحجّة اجتماع المأمومين والمريدين» وحينئذٍ، هل يصحّ القول: إنّ هذا السيّد يسعى لجمع المريدين؟!

وعندما كان يحلّ الليل، كان يذهب إلى المسجد، وكان معظم سكّان الأحياء المحيطة بمسجد القائم في شارع "سعدي" ينتمون إلى الأقلّيات الدينيّة؛ فكان روّاد المسجد من التجّار وأمثالهم، حيث كان هؤلاء أحيانًا يقولون عند حلول وقت صلاة الظهر: «على الأرجح أنّه لا يزال هناك مشترون» فإلى أن يأتي المشتري، ويقضوا له حاجته، يلزم أن يأخذ الأمر مقدارًا من

الزمان؛ وحتّى إذا أرادوا أن يصرفوا النظر عن ذلك، فإنّهم سيخسرون ذلك المشتري. وفي جميع التقادير، إلى أن يأتي هؤلاء إلى المسجد، تكون قد مضت عشرين دقيقة أو نصف ساعة تقريباً؛ وحينما كان يصِلون إلى المسجد، كانت صلاة المغرب قد أقيمت؛ فكانوا يقولون: «يا سيّدي، اصبر قليلاً إلى أن يصل المؤمنون - وكنت أسمع البعض ينطق الهمزة عيناً فيقول "المعمنون" بدلاً عن "المؤمنون"!!! -، [1] ويصل المريدون، فتُقام الصلاة بحالة من العظمة والأبّهة» لكنّه كان يقول: «الصلاة في أوّل الوقت مستحبّة، فكلّ من أراد المجيء، فليأت، وكلّ من لم يُرد ذلك، فهو حرّ» وهذا يتّضح أنّه حينما كان يقول: «لم يكن لديّ أيّ تعلّق بهذا المسجد، ولو بمقدار ذرّة واحدة» فإنّه كان صادقاً في كلامه؛ هذا، مع أنّه في الوقت ذاته كانت تصرّفاته وأعماله هي بنحو - وكما

---

[1] تجدر الإشارة إلى أنّ حرف العين يُنطق في اللغة الفارسيّة بالألف؛ ولهذا، فإنّ الناطقين بهذه اللغة يجدون صعوبة في التفريق بين هذين الحرفين؛ بل إنّ بعض المتنطّعين في الدين يُبالغون أثناء قراءة القرآن الكريم في التشديد على العين لكي يتميّز عن الألف. المترجم

كذلك إلى أشرت ـ حيث إذا نظر أحد ـ آنفاً ذلك، وتلك المتابعة، وتلك الدقّة، وذلك التدبير الاهتمام، وتلك الإدارة الأمور المرتبطة بالمنبر والناس، ورأى تلك الحميميّة وذلك الكلام الذي كان يخصّ به الأفراد واحداً واحداً، فإنّه سيقول: «إنّ هذا السيّد يُريد توريث هذه الصناديق المسجد الذي من بعده، ويتركه أطوع قدم الأشخاص الذين سيأتون بعد ستّة أجيال من بعده!» وانتبهوا، فإنّ هذه المسائل مهمّة جدًّا!

نظرة العلم الطاقة الصغرى إلى الدقّة الإلهيّة

لكن، بعد ذلك، التفت إلى أنّه صار ملزمًا بالرحيل إلى مشهد، حيث كان ذلك بدوره امتثالاً لأوامر أستاذه؛ وهي مسألة لم يطّلع عليها أيّ أحد؛ فقال له: «إنّ بقاءك في طهران لم تعُد فيه أيّة مصلحة، وعليك الذهاب إلى مشهد، والانهماك في تأليف هذه الكتب للأجيال التي ستأتي بعدك»؛ فمن قال له ذلك؟ إنّه رجل لا يهتمّ [على حدّ زعمكم] بالمجتمع! فيا أيّها السادة، لنفتح أعيننا جيّدًا، لكي نرى ما هو المدى الذي بلغته مدرسة العرفان، ومَن

هم الأفراد الذين تهتمّ بهم؛ فهو [أي السيّد الحدّاد] لم يكن يهتمّ بأنّ هذا الشخص قد جاء عنده، فصار كاملاً، وبلغ مرتبة الفناء، وحصل له البقاء، لا! بل إنّ تلك النظرة الإلهيّة التي يمتلكها وليّ الله تمتدّ إلى يوم القيامة، وليس فقط إلى متر واحد أبعد من موضع قدميه.. إنّ تلك الرؤية الإلهيّة التي يتوفّر عليها العارف تمتدّ إلى أقصى نقاط العالم، فتصل إلى منزل تلك العجوز المسيحيّة التي تعيش في المكان الفلانيّ من أمريكا، أو أوربا، أو إفريقيا، أو الجزر البعيدة، أو المحيط الهادييء؛ وانتبهوا، فإنّ المسائل التي أعرضها على مسامعكم ليست مجرّد ألفاظ جوفاء! فالمرحوم العلاّمة قال لي: «يا فلان، لقد بسطنا مائدة لنجمع عليها جميع الناس من كافّة الأمم والشعوب»؛ فهذه العبارة عبارته هو، وهو لم يكن يُغالي في كلامه، حيث قال: «جمعنا عليها جميع الأمم والشعوب، فلا تظنّ بأنّ هذه الكتب ألّفتها لهذه الثلّة القليلة من الأصدقاء والرفقاء فقط، بل صنّفتها أيضًا لتلك العجوز المسيحيّة القاطنة بأقصى نقاط العالم،

والتي سيبلغها كتابي هذا، ويقلب كيانها، ويُضيء قلبها بنور الإيمان، فتعتنق الإسلام، وتضحى من شيعة عليّ بن أبي طالب». فهذا هو الكلام الذي قاله لي في طريق عودتنا من زيارة الإمام الرضا.

وهذه المسألة لا تدخل في باب المزل، بل إنّها هي المزلة! ومن العارفان؛ فمن الذي قال إنّ العارف اختار المزلة؟! ومن الذي قال إنّ العرفاء يقتصرون على الاهتمام بشؤونهم الشخصيّة، ولا شأن لهم بأي إنسان آخر؟! ومن الذي قال إنّهم لا يهتمّون بالمسائل الاجتماعيّة؟! فما هذه التزهات؟! فهل تجدون من بين المدّعين لنشر الدين مدرسة الرسول أحدًا ما إن رجع من المستشفى وتبلّغ برسالة أحد الأئمّة، وشرع في التأليف، هو إلى البيت، حتّى حمل كتابه، وشرع في الكتابة على السرير؟ دلّوني على هكذا شخص! فما هو سبب ذلك؟ سبب ذلك أنّ ما يراه ويُدركه هو في وقت تصوّر انتهاء الحياة؛ فحين نسأل بهذا الجواب، فلماذا نكذب على أنفسنا؟ لماذا؟ فإذا كانت أحوالنا سيّئة، فإنّنا سنقول: إنّ أحوالنا غير مناسبة، فلا رغبة لنا بذلك؛ لأنّنا لا نشعر

تتسحتو ،انجازمنّسحتامىتمو ؛اذكو ،اذكو ،بعتلاب
ةباتكلا يف الله ةكربىلعأدبنو ،ملقلا لمحنانّئافإ ،انلاوحأ
،نلآا فّقوتنلف!انبعتدقل:لوقنو ،نيرطسبتكنمّثً،لايلق
مهّنافإ ،ءامظعلا كئلوأ امأو «نيتعاسدعبعجرنو
نيذللا ةمهلا كلتوم امتهلاا كلذنيعبمهنايكيفنورعشي
،نحنانفلاخبً،ةئامعزونيدلا ءامظعامهبّسحينا ك
،ةلأسملا هذهنمانسفنأببرتقنىّتح،كلذبرعشنلا انّئافإ
.اهيلعةّينارونلاوةقيقحلا هذهىّلجتتو

وتحضرني الآن مسألةٌ أرى من المؤسف ألاّ أحكيها للرفقاء؛ فقد اطّلعت عليها بعد وفاة [المرحوم العلاّمة]، وهي من أسراره الخاصّة، ولا إشكال في إفشائها الآن، حيث اكتشفت ذات يوم عن طريق إحدى القضايا والجهات أنّه ذكرها لأحدهم بشكل خاصّ وسرّي، فقال له: «حينما أكون مختليًا بالله تعالى أناجيه، فإنّني أشعر في سويداء قلبي بأنّني أريد منه تعالى ومن إمام الزمان ـ إذا كان ذلك ممكنًا ـ ألاّ تمنحني يا إلهي ذلك المقام الرفيع، وذلك الفناء والبقاء، وكلّ ما تحدّث عنه العظماء

والعرفاء، وعوضًا عن ذلك، تُؤيّد دينك الذي أرسلته للناس؛ ومرادي من ذلك ما أنا في صدد بيانه، وطرحه في كتبي وكلماتي»؛ وأمّا نحن، فما الذي كنّا سنقوم به تجاه هذه المسائل؟ فلو قيل لكم الآن: «يا أيّها السيّد، لا توجد أيّة فائدة في مجيئكم إلى هنا»، فلن يوجد أيّ داع لمجيئنا؛ وحينئذ، لماذا سنقوم من مكاننا، ونأتي؟ ولو قيل لي: «يا أيّها السيّد، لا توجد أيّة فائدة متوخّاة من الكلام الذي تتفوّه به، ولن يُسجّله الله تعالى في ملفّك»، فإنّني سأقول: «أنا جالس في بيتي، فما الداعي لكي أقوم من مكاني، وآتي [إلى هنا]؟!».

المعارف تقدم على أعلى درجة من الالتحيّة في سبيل هداية الناس

أنا أريد أن أتحدّث عن مسألة دقيقة جدًّا، ولا أعلم فيما هو أعلى هدف المكلّفين الراقين من استيعابها أم لا؟ فما هو أعلى ذلك الهدف؟ أن يصل إلى الإلهي؟ أو فرع خيوط الجمال الإلهي؟ أن يصل إلى تلك المقامات، الرضا الإلهي، ويحصل لنفسه على تلك الاستعدادات، ويُبذّل لأجل نفسه تلك الدرجة، ويُعلّم الإنسان الجاهلين إلى علم، ويصل إلى كلّ ما يُحوّله من

عاديّ إلى إنسان فوق البشر؛ وهذه مسائل ليست دينيّة، بل تنضوي بأجمعها في ضمن الأهداف الإلهيّة والروحانيّة، والتي خُلقنا ووُجدنا لأجلها أساساً؛ ومع ذلك، فإنّنا نجده هنا يترقّى درجة أعلى من ذلك، ويقول: إلهي، إنّ ذلك الجانب من العطف والرحمة والمحبّة تجاه إرشاد الناس وهدايتهم، وتجاه ما تعب لأجله العظماء من الأنبياء والأولياء، وتحمّلوا في سبيله كافّة المشقّات، وزحزحوا تحت القيود والأغلال لأجله ....

هل تعلمون أنّ الإمام السجّاد قطع المسافة من كربلاء إلى الشام في مدّة تتراوح بين ثلاثين إلى أربعين يوماً كحدّ أقلّ بحسب النقل التاريخيّ، وهو ينتقل من مكان إلى آخر في وضعيّة [مزريّة]، ويقطع الصحاري والجبال مقيّداً بالسلاسل والأغلال؟ فما الذي يحكيه لنا التاريخ؟ فالأمر عجيب حقّاً! فما هي الأوضاع التي كان يعيشها موسى بن جعفر؟! والأحوال التي كان عليها الإمام السجّاد؟! لقد كان الأئمّة يُعانون من السجن والنفي والتعذيب والسوط؛ فموسى بن جعفر لم يكن يُقاسي في

سجن السندي بن شاهك من الحبس فقط، بل كان يزرح
تحت التعذيب وضرب السياط أيضاً؛ فهل تعلمون ما
الذي يعنيه ذلك؟ وهل رأيتم ما هي الأعمال التي يقومون
بها في السجن؟ لقد كان موسى بن جعفر يُعاني من
السوط والتعذيب، حيث نُقلت هذه الأمور في كلّ مكان.

فاحتجاز الإمامين الحسن والحسين، والتشرّد،
وجميع المشاقّ، وأمثال ذلك من القضايا التي حصلت
لهم أحدثت في المرحوم الوالد حالة، بحيث كان يقول:
«إلهي، إن أمكن ألاّ تمتحنني هذه المقامات، لكنّك تجعل
ثمرةً لتلك المشاقّ التي تحمّلها هؤلاء العظماء،
[فافعل]!» فهذه هي حقيقة المسألة؛ وهي تُعبّر عن غاية
التضحية التي يقوم بها إنسان ورجل إلهيّ مشهمٍ في مقام
الإيثار والفداء؛ أي أنّه لا يوجد ما هو أرقى من ذلك، ولا
يُمكنني تصوّره؛ بمعنى أنّه لم تحصل لي أنا شخصيًّا
حالة كهذه؛ فنحن فقط على ذحو الإجمال والإبهام
نستطيع تصوّر كيف أنّ أحدًا مستعدّ للتغاضي حتّى عن

الرضوان الإلهيّ، في مقابل أيّ ذنب بتعب الأئمّة هدرًا؛ أفهل بوسع أحد القيام بذلك؟!

افرضوا أنّ إمام الزمان عليه السلام قال لأحدنا: «عليك القيام بهذا العمل، غير أنّك إذا قمت به، فلن أهبك أيّ شيء، لا سعادة الدنيا، ولا الآخرة، ولن أمنحك أيّ أجر عليه، لكنّ هذا العمل الذي ستقوم به يحظى برضانا» فهل سنقوم به في هذه الحالة؟ لن نقوم به؛ فنحن نرغب في القيام بالعمل، حتّى نصل إلى نتيجة معيّنة! هذا، مع أنّنا لا نقول هنا إنّنا نريد من إمام الزمان أن يمنحنا الدنيا، بل إنّنا نتغاضى عن هذا الأمر؛ لكن، كحدّ أقلّ، فإنّنا نريد الآخرة، ونرغب في الجنّة، ومرافقة الأئمّة، ومصاحبة العظماء، ومخالطتهم؛ ولنفكّر بشكل جدّي؛ فلو جاء الإمام عليه السلام، وقال لنا: «إذا قمتم بالعمل الفلاني، فلن يكون ثواب هو مرافقتي هناك، لكنّه سيحوز على رضاي» فإنّنا لن نقوم به، بينما كان المرحوم العلاّمة سيقوم به؛ ولهذا، فإنّنا نقول إنّه لا يُمكننا أبدًا تصوّر المرتبة من الإيثار والفداء التي ينبغي

على الإنسان الوصول إليها، حتّى يتسنّى له القول بهذا الأمر؛ فلا يُمكن لأحد تصوّر ذلك.

وكنت أريد القول هنا: حينما تقرّر أن يذهب [المرحوم العلاّمة] إلى مشهد، جاء العديد من الناس للاعتراض عليه، وقالوا له: «يا سيّدي، لقد بذلت كلّ هذه المشقّة في سبيل المسجد، وقمت لأجله بكافّة تلك الأعمال، فتمكّن هذا المسجد للتوّ من الرقيّ والازدهار» حيث يعلم الرفقاء القدماء بأنّ أوضاع المسجد كانت في السابق بنحو مغاير؛ وقد كان [المرحوم العلاّمة] يتدخّل حتّى في الشؤون المتعلّقة ببناء المسجد، ويُبدي رأيه ويُقدّم خططه بشأنها، وكم كان يُدقّق في المسائل ذات الصلة بنظافة المسجد، فكان ينزعج من وجود شيء من القمامة في زاوية منه، ويُنادي على الخادم: «لماذا لم ترفع هذه القمامة أيّها السيّد؟ لماذا هذا المكان متّسخ؟» ويقول له: «لقد ذهبت لكي أتوضّأ، فوجدت بأنّ المكان الكذائي من محلّ الوضوء متّسخ» فيؤنّبه، ويوبّخه، ويُحاسبه.

لكن، حينما تقرّر أن يرحل إلى مشهد، تخلّى عنه دفعة واحدة؛ وكأنّه لم يكن هناك أيّ مسجد باسم مسجد القائم من الأساس؛ فكان يأتي عنده الأقرباء والمشايخ والأناس العاديّون والغرباء، ويقولون له: «يا سيّدي، هلاّ تركت هنا أحد أبنائك كحدّ أقلّ، فقد بذلت جهدًا كبيرًا يا سيّدي، ومن هذا الذي يُقدم على هكذا فعل؟ يا سيّدي، كذا وكذا ...».

عن اللغة التي خدمة المجتمع تتحوّل إلى خدمة الأساس الهدف

قال لي، ولا أعلم هل اختصّني بهذا القول ذاته يومها: «يا عزيزي، أو أيضًا أنا وإخواني كنا حاضرين أم أنّ بقيّة أبنائي، حينما أتيت إلى طهران، فإنّ وجودي فيها لم يكن برغبتي واختياري، ولو لساعة واحدة، فلا تدعوا هذا المسجد وهذا المحراب وكافّة هذه الأمور تخدعكم! لا تجعلوها لإخراجكم عن طريقكم! ولا تسمحوا لها بهذا! ولا تدعوها تغلّ أقدامكم» فجميع تعلّقكم وترابطكم بها! ولا تدعوها تغلّ أقدامكم! فجميع هذه الأمور عبارة عن أفخاخ؛ لأنّه إذا تحقّقت في هذه الأمور التعلّق الطريق الصحيح والمسار الصحيح ـ أي عدم

بالمسائل الدينيّة ـ لكن من دون الالتفات إلى ذلك الهدف الأساس، فإنّها تتحوّل إلى أفخاخ وشباك؛ هذا، مع أنّ الخوض في هذا لا يختصّ بالمسجد، بل بكافّة الأمور؛ فحديث مفصل بين مُجمل» ففي كلّ شيء، إذا أراد الإنسان [أن ينحرف] بمقدار ذرّة ... فحينما يرجع الإنسان إلى نفسه، يستطيع بمقدار معيّن [أن يطّلع على نيّته]؛ فلا يُمكننا القول إنّنا لا نستطيع ذلك، بل كلّ واحد منّا يستطيع، وأنا بدوري أستطيع ذلك؛ ففي بعض الأحيان، يبعث إليّ الأصدقاء برسائل يسألونني فيها: يا سيّدي، كيف نعرف هل نحن مخلصون أم لا؟ وكيف نكتشف بأنّنا عملنا في المسألة الكذائيّة مثلاً لأجل الله تعالى أم لا؟ لا، نحن بأجمعنا نعلم، لكن بشرط أن نخلص في ذلك؛ فحينما أرجع إلى نفسي، على أن أرى هل إذا قيل لي فجأة: أيّها السيّد تنحّ جانباً، فلا نريد منك بعد أن تعقد هذا المجلس، تفضّل، واستراح في بيتك قليلاً، وعد بعد هؤلاء الساذة يتراحون بدورهم قليلاً، حتّى لا يُعانوا ذلك من المتاعب، حيث نجدهم يأتون من هذه النائية

وجود من يتكئون على الدين الآخرين معتقدين أن من الدين هذا! لا، قم من هذا المكان! فإن مسائل الدين ليست مفيدة لك، يجيء من يقول لي: «أيّها السيّد المحترم أنا ساكن في ذلك المكان، ولم يحرّك ساكناً؛ فإلى ماذا سيؤول إليه الأمر في الأخير؟ فقد بذلنا كلّ تلك الجهود، وأوقعنا أنفسنا في المشاكل والمتاعب لسنوات عديدة، فإلى ماذا ستصير هذه المسألة؟ وما شأنك أنت بمصير الأمور؟ وما دخلك بذلك؟ أهل أنت وصيّ على الدين؟ أهل أنت هو صاحب الدين والقيّم عليه؟ ومن الذي منحك هذه السلطة؟ فليس فقط تنحيتُك جانباً لا تأثير لها، بل تعال، مُت هذا اليوم، ثمّ انظر هل سيؤثّر ذلك في الأمور أم لا؛ لا يا عزيزي، فالدين له صاحب، وصاحبه حيّ، وهو حيّ منذ ألف ومائتي سنة؛ ولن يحصل له أيّ شيء، وأنا أضمن لك ذلك!

فإمام زماننا لن يُصاب بأيّ مكروه، بل هو في صحّة جيّدة، فلا يضطرّ لتناول الأدوية، ولا يُصاب بالسكتة القلبية، ولا يأخذ

بالصداع، ولا بالانزلاق الغضروفي، لماذا؟ لأنّه يُراعي أمور الصحّة والسلامة؛ فلا يحتاج بعدئذٍ للأستاميفون، ولا للأقراص الكذائيّة، ولا للحقن، و... أفهل رأى أحدٌ إلى حدّ الآن إمام الزمان في الصيدليّة؟! أم هل إنّه اضطرّ لزيارة أيّ طبيب؟! بخلافنا نحن؛ لأنّنا جاهلون، ولا اطّلاع لنا على الأمور؛ ولهذا، تجدنا نذهب إلى هنا وهناك. فالدين له صاحب؛ وحينئذٍ، ما معنى التدخّل والفضول والاغتمام؟ حيث تجد أحدهم يقول: «ماذا سيحصل إذا لم نوجد نحن؟ وما الذي سيُصيب الإسلام إذا لم نكن نحن؟» ما معنى هذا الكلام؟ ما هذا الكلام الفارغ؟ ما هذه التزّهات؟ فالدين له صاحب، وليّ، وقيّم، وله سيّد؛ وقد أُمرت بأن آتي إلى هنا بمقتضى التكليف، وأتحدّث لمدّة ساعة واحدة، ثمّ أذهب بعد ذلك إلى حال سبيلي؛ هذا فقط، والسلام! وانتهى الأمر! فإذا قمت بذلك، فإنّ صاحب هذا الدين سيُوقّع على ملفّي؛ وإذا لم أقم بذلك، فإنّه لن يُوقّع عليه؛

فهذا الأمر يشملني أنا، ويشمل الرفقاء أيضاً.. كلٌّ بمقتضى حسابه وتكليفه الخاصّين.

ثمّ قال لي بعد ذلك: «يا عزيزي، ما عليك الخوض فيه هو دروسك، وليست أحجار المسجد ولبناته وحديده؛ فاذهب واشغل بدراستك، واهتمّ بنفسك». وهذا الكلام ممّن صدر؟ لقد صدر من رجل تمكّن من الوصول إلى متن الواقع والاعتبارات، ومن تعيين الحدود الدقائمة بين الاعتبارات والحقائق؛ فتجد أحدهم يقول: «أيّها السيّد، لولانا نحن، لبقي هؤلاء اليتامى جوعى! وإذا لم نكن نحن، فمن الذي سيؤدّي هذه الصدقات؟ وإذا لم نوجد نحن، فإنّنا نخاف ألا تُنجز هذه الأعمال! ولولانا نحن، لانفلتت زمام الدين مثلاً! وإذا لم نكن نحن، فإن أساس الفقه والفقاهة والفتوى سينهدم!». لا يا عزيزي، لن ينهدم أيّ شيء بتاتاً.

ذات يوم، حصلت قضيّة ألحدهم في إحدى هذه المدن، حيث جاء عندي، وقال: «يا سيّدي، أريد أن أعقد في اليوم الكذائيّ من الأيّام الفاطميّة مجلس عزاء في

منزلي، وأقيم مائدة إطعام أيضاً بهذه المناسبة». لكن، لم يتّضح لي كثيراً الهدف والغرض من هذه المسألة، فقلت له: «حسن جداً، حالياً، قم بالإطعام». فلمّا قام بذلك، رأى بأنّ الأمر ليس بسيّء، بل هو جيّد، فمرّ شهر واحد، وحلّت مناسبة أخرى، فقال لي: «يا سيّدي، هل تأذن لي بإقامة مائدة إطعام؟» فقلت له: «هل تملك مالاً وفيراً؟ إذن، امنحني أموالك، لكي أهبها لذاك المسكين الذي عقد مجلس عزاء في بيته لمدّة خمسة أيّام، ويُريد أن يقيم مائدة للإطعام، لكنّه يفتقر للمال». فقال لي: «لكنّني يا سيّدي، عقدت نذراً». فقلت له: «أنا أتحمّل مسؤوليّة نذرك؛ أفلم تكن تريد الاستفسار عن مسألة شرعيّة؟ أنا سأتكفّل يوم القيامة بإرضاء الله تعالى عنك! فمن هذا الذي تسعى لخداعه؟ فإذا كنت تريد الاستفسار عن مسألة شرعيّة، فأنا أقول لك: امنحني المال، وأنا سأتكفّل بنذرك». لكنّه لم يقبل؛ فهذا امتحان مفاجيء! ونحن بوسعنا أن نمتحن أنفسنا، لكنّ الأمر صعب؛ فالمائدة للإطعام ينبغي أن تُقام في بيتنا؛ فمع أنّ المائدة هي مائدة الإطعام

الحسين، أو السيّدة الزهراء، فيأتي الناس، ويذهبون، ونقول: «نعم به وأكرم، فقد كانت المائدة ولله الحمد جيّدة» لكن، ما هو باطن هذه التمجيدات والتحميدات؟ باطنها متّصل بأمور لا ينبغي أن تتّصل بها.. متّصل بالنفس! فالصورة صورة إلهيّة، لكن لها حدّ ومقدار معيّن ومرتبة خاصّة؛ فأنا لا أريد أن أقول: إنّ كلّ إنسان هو بهذا النحو، وأنّ جميع أعماله ...؛ فبنفس ذلك المقدار يكون الإنسان أقرب.

أداء الأعمال ينبغي أن يكون وفق ما يقتضيه التكليف

ولهذا، حينما غادر المرحوم العلاّمة مسجد القائم، فإنّه فقد جميع تلك الشؤون والجوانب الاجتماعيّة؛ وأحياناً، حينما كنّا نتحدّث عن هذا المسجد، نقول: «يا سيّدي، لقد صار مسجد القائم بالنحو الكذائيّ»، ويُقال إنّ بعض المسائل أصبحت بهذا الشكل» فإنّه كان يقول: «لم أعُد أريد سماع أيّ شيء عن مسجد القائم» هكذا، وبكلّ سهولة، وقاطعاً الطريق أمام كلّ معترض؛ وحينئذ، من سيكون هذا الشخص؟ سيكون شخصاً لو بقي في

طهران، لكان عمله ممضى [من قبل الله تعالى]؛ ولو ذهب إلى مشهد، لكان عمله ممضى، ولو رحل إلى النجف، لكان عمله ممضى، ولو ذهب إلى أستراليا، لكان عمله ممضى، ولو رحل إلى إفريقيا، لكان عمله ممضى؛ وسيكون فعله ممضى في أيّة منطقة من الصحراء، وفي البحر، والمدينة، وفي كلّ مكان؛ فهذا أساس ومرتكز حركة الإنسان وسلوكه.. هذه هي حقيقة المسألة.

ومن هذا، فإنّما يُريده الله تعالى منّا هو هذا المقدار فقط: أن نُؤدّي أعمالنا وفق ما يقتضيه التكليف فقط، من دون أن نلصق أيّ شيء بأنفسنا، أو نضيف شيئاً من عندنا، أو نتدخّل في الأمور، ونزيد على فعل الله تعالى؛ فلا ينبغي علينا أن نكون ملكيّين أكثر من الملك، بل علينا أن نتحرّك في ضمن الحدود الخاصّة بكلّ عمل نقوم به؛ فعلى التاجر أن يتحرّك في داخل حدوده الخاصّة، وعلى العالم أن يكون مطّلعاً ـ في حدوده الخاصّة ـ على ما اذا يقول، وعلى نوع العلاقة التي يقيمها مع الناس؛ وحينئذ،

سيضحى نوع هذه العلاقة مهمًّا جدًّا؛ كما عليه أيضًا أن يرى ما هي المسائل التي يتعيّن عليه أخذها بعين الاعتبار، بحيث يكون ملزمًا بجعل ارتباطاته قائمةً على أساس التوحيد، وليس على أساس العلاقات الشخصيّة؛ فلا ينبغي أن تتدخّل هنا هذه العلاقات؛ هذا، ويُمكن لكلّ واحد منّا الالتزام بهذه الأمور. وفي هذه الحالة، ستصير الارتباطات الخارجيّة والداخليّة، والارتباطات بالزوجة والأولاد والعائلة والأقرباء، والارتباطات بالخارج والعمل كلّها في مستوى واحد، بحيث إذا خرجت أيّة حلقة من هذه الحلقات عن مكانها الخاصّ، فإنّ ذلك سيترك تأثيره على الإنسان؛ فإذا تصرّف الإنسان بنحو أدّى به إلى التقصير في الاهتمام بالزوجة والأولاد، فإنّ ذلك سيُؤثّر على أحوالها؛ فهذه الحلقة الآن لم توضع في موضعها المناسب.. لماذا؟ لأنّ للزوجة والأولاد مكانهم الخاصّ أيضًا.. شأنهم في ذلك شأن بقيّة الناس.

لاحظوا، فقد قمنا في البداية بوضع ذلك الأساس اعتماداً على مسألة التوحيد؛ ونُريد الآن أن نُشيّد فوقه بناءً، فما هي الأمور التي علينا أن نُشيّدها فوقه؟ وما هي المسائل التي يتعيّن علينا أن نضعها فوق هذا الأساس الذي بنيناه الآن؟ افرضوا أنّه لدينا هنا أساساً لجدار، وحينما نُريد بناء غرفة، فإنّنا نجعل الجدار أبعد من الأساس بمتر واحد؛ ففي هذه الحالة، فإنّ الجدار لن يكون موضوعاً على الأساس؛ فإذا أردنا صبّ الخرسانة في المكان ذاته، علينا أن نضع أساسات الجدار، وأساسات الدعائم والركائز في موضعها المناسب؛ ومن هذا، علينا في مثل هذه الظروف اعتبار كلٍّ من العلاقات العائلية والخارجية، وجعلهما في مستوى واحد؛ فالعلاقات ينبغي عليها أن تكون في مستوى، والارتباط مع الأرحام ينبغي أن يكون في نفس المستوى، وكما يتعيّن أيضاً اعتبار التواجد بالبيت ونوع العلاقات القائمة بالمنزل في المستوى ذاته، وجعله بنفس تلك الطريقة؛ وحينئذ، لن يكون بالإمكان اعتبار

المسائل العائليّة، وحتى منفصلة عن المسائل السلوكيّة الداخليّة، بحيث يكون من شأن التقصير في الشؤون السلوكيّة والنفسانيّة على المسائل العائليّة تأثير مهدّم على الإنسان.

تأثير التقصير في السلوكيّات العائليّة على الإنسان

جاء أحدهم عند أحد العظماء شاكيًا له أحواله، وأنّه لا يترقّى، ولا يتقدّم إلى الأمام، وأنّه يُعاني أحيانًا من هذه المسألة؛ فالتفت إليه ذلك العظيم، وقال له: «هل تُسيء معاملة زوجتك وأولادك؟!»؛ هذا، مع أنّه لم يكن لأيّ أحد اطّلاع على هذا الأمر، وقال له: «إنّ سبب ذلك يرجع إلى هذه المسألة».

وتذكّر أنّ إحدى المسائل التي كان المرحوم السيّد الوالد كثيرًا ما يوصي بها المرحوم الحدّاد هي مسألة العائلة ـ وتنبّه إلى هذا الأمر ـ أصدقاءه، وتحاور معهم، وأوصى خصوصًا الأولاد والزوجة والشؤون العائليّة بالله، ومواظبتهم، ومواقفتهم، ومصاحبتهم، ومنزلتهم عند الإنسان، لا أن يقوم الإنسان بكلّ عملٍ؛ لكي

كأن يُبدي رضاه ومحبّته لهم في موضع غير منسب، أو يُقدّم لهم بعض الامتيازات في محلّ غير منسب، بل عليه أن يلجأ إلى هذه الأمور في مكانها المنسب، ومع مراعاة المعايير التي حدّدها الله تعالى للإنسان. ومن باب المثال، في أغلب الأوقات التي كان المرحوم الوالد يتشرّف فيها بزيارة كربلاء، كان أحد أصدقاء المرحوم السيّد الحدّاد يُحبّه كثيرًا؛ وحينما يراه أتى إلى كربلاء، كان يرغب في المجيء إلى هناك، مع أنّ بيته يقع في النجف؛ وبما أنّ منزله يقع في البريّة بين النجف وكربلاء، فإنّ ذلك يفرض الحاجة إلى وجود شخص كبير في السنّ [بالبيت]؛ إذ من الممكن أن تُحدث بعض التخيّلات والأحاسيس والأمور الأخرى الخوف لدى الناس [أي العائلة هنا]؛ وهي مسألة طبيعيّة؛ فكان ذلك الشخص يُريد أن يأتي، ويبيت هناك؛ أي مثلاً أنّه كان يأتي صبيحة الخميس أو الجمعة، ويُريد البقاء ليلة السبت أيضًا بسبب مجيء المرحوم العلاّمة.

أبدأ الحدّاد السيّد مع الوالد المرحوم حديث كان لقد

وتحدّثان، يجلسان كانا فإذ ؛الليل منتصف بعد التقوّ

وأنا ؛هذا، ومع الصباح يُضيئان ؛ذاكرتهما عن يغفلان لم

يجلس ذلك الشخص كان فإذ ...، وأيضاً، يتكلّمان ؛كانا

الحدّاد السيّد المرحوم والد له: «ذهب أيّها السيّد عند

زوجتك وأولادك!» فكان يقول: «يا سيّدي، لقد جاء السيّد

محمد الحسين!» فكان يقول له: «ليأت السيّد محمّد

الحسين؛ إنّ مجيئه يخصّه هو» فكان يقول: «يا سيّدي، إنّ

هذا يصعب عليّ كثيرًا» فكان يقول له: «المسألة هي بهذا

الحدّاد السيّد المرحوم والد له ذلك مرّة

واحدة، ولا يُعيد له الحديث مرّة ثانية، حيث كانت هذه

عادته؛ أي أنّه يذكر المسألة مرّة واحدة، ولا يكرّرها

مجدّدًا؛ غير أنّه كان يُبدي حساسيّة شديدة تجاه مسألة

مراعاة الشؤون العائليّة.

والد المرحوم لنا حكى وقد

ذلك الشخص أتى أنّ أحد الأيّام، في

جالسين، كنّا وحينما انقضى وقت

الغروب، قال له السيّد الحدّاد: «حسنًا جدًّا، لقد تأخّر

الوقت، اذهب إلى بيتك! ارحل من كربلاء إلى النجف، ثمّ اذهب بعد ذلك إلى منزلك!» ولا يخفى أنّ النجف والكوفة صارتا الآن متّصلتين، ويبدو أنّه لم يعُد هناك مكان فارغ بينهما؛ لكن، في تلك الأيّام، أتذكّر أنّه حينما كنت أبلغ السابعة عشرة من العمر، ذهبنا إلى بيت ذلك الرفيق للمرحوم العلاّمة، وذلك عند رجوعنا من زيارة العتبات المقدّسة بعد أدائنا للحجّ، فكانت تلك المنطقة بأجمعها وإلى منتهى حدّ البصر عبارة عن بريّة، ولم يكن هناك إلاّ بعض المنازل والأشجار؛ ففي هكذا أوضاع، سيشعر أهل المنزل بالخوف والاضطراب؛ بينما تُريد أنت أن تُقصّر في بعض الأمور بسبب علاقتك بالأستاذ، وحصولك على بعض الحالات، وارتباطك بالرفيق، والأنس به ومؤانسته؛ وحينما تُقصّر في مسألة ما، يأتي الامتحان! فحينما جلستَ هناك، ظانًّا أنّك تستمتع، وتتحدّث، وتضحك، وتستفيد بعض المسائل، فإنّ جلوسك هذا يتسبّب في اهتزاز قلب شخص آخر، وخوفه؛ فما الذي فعلته لليلولة دون

ذلك؟! ولذلك، فإنّ هذا الجلوس سيُؤدّي إلى قساوة القلب، لكنّ النفس تأتي وتُسلّيه بتلك الأمور، بينما يسعى الأستاذ لإخراج هذه النفس، وسحبها للخارج، ويُريد التقليل من التعلّقات، وإضفاء جانب الطهارة على النفس، غير أنّ ذلك الشخص يتسبّب بعمله في قساوة قلبه من دون أن يعلم، ظانًّا أنّه جلس يستمتع، ويتحدّث، ويستمع للأسرار، لكن، ما هي فائدة سماعه لهذه الأسرار؟ أجل، لقد كان يُصغي للأسرار، ومطّلعًا على العديد منها، حيث أشار المرحوم العلاّمة بنفسه إلى أنّ الله تعالى فتح بصيرته لرؤية الأسرار وسماعها، لكنّ مجرّد الإصغاء للأسرار لا يكون هو نهاية الأمر.

حقيقة السلوك في ترك التعلّقات وليس الاطّلاع على الأسرار

أفلا توجد لدينا في القرآن الكريم آية تتحدّث عن قصّة بلعم بن باعورا، وتقول: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾[1]؟! أي أنّنا وهبنا من عندنا تلك العلوم التي لا نهبها

---

[1] سورة الكهف، الآية ٦٦.

لآلاخرين؛ وبسبب هذا العلم، صار مستجاب الدعوة، بحيث كان يُستجاب لكلّ شيء يدعو به؛ فأتى، وحاول استخدام هذا العلم ضدّ وليّ الله تعالى.. حضرة موسى عليه السلام، لكنّ غيرة الله تعالى لا تسمح بذلك.. لقد أخذت منّي ذلك، وأردت أن تستخدمه ضدّ وليّي!! هذا غير ممكن! وقد ابتُليَ ذلك الشخص بنفس هذه المصيبة، حيث تمكّن من الاطّلاع على بعض المسائل، فصار يرى ويسمع مجموعة من الأسرار، ويقول: «إنّنا نجلس عند السيّد، ونستمتع، ونتحدّث، ونضحك.. أجل، لقد حضرنا عنده ذلك المجلس، فكم كانت جيّدة تلك المسائل التي تكلّم عنها! وكم استفدنا منها!» يا أيّها المسكين، أنت لم تستفد شيئًا، بل المصائب تحلّ على رأسك من دون أن تشعر! فلو كنت قد قمت من مكانك، وذهبت، وتذوّقت مرارة عدم المصحبة، وتجرّعت غصص الفراق، وبلَعتها، لنفعك ذلك، وأحدث فيك تأثيرًا؛ فهذه هي حقيقة السلوك يا عزيزي! وليس الجلوس، والاستماع، والحديث، والضحك، وقراءة الدعاء!

فمسألة السلوك عبارة عن سحب النفس عن كافّة التعلّقات، سواء كانت دنيويّة أو أخرويّة؛ وذاك الجالس هناك لم يكن يحكي عن قصّة كليلة ودمنة، بل كان يتحدّث عن مسائل إلهيّة؛ لكنّ المسائل الإلهيّة لا تكون كذلك إلاّ إذا كان إلهيّة فعلاً؛ وأمّا إذا جرى وضعها في غير محلّها المناسب، فإنّها ستصير شيطانيّة؛ وقد شاهدتم ما حلّ برأس ذلك الشخص؟ لماذا حلّ ذلك برأسه؟ بسبب تلك الليالي التي لم يمتثل فيها بالذهاب. وحتّى أنّ المرحوم العلاّمة قال إنّه كان في بعض الحالات يلجأ للردّ؛ ولا يُصغي لكلامه، ويبقى هناك؛ فكان أستاذه بدوره لا يفعل له شيئاً، ويتصرّف بطريقة أخرى لا يُمكننا الحديث عنها هنا؛ هذا، مع أنّ الأستاذ ينظر لكافّة جهات المسألة، علاوةً على أنّ الأمور التي يذكرها تعود بنفعها على ذلك الشخص بنفسه؛ فما علاقة الأستاذ بذلك؟ فهو سيظلّ حيّاً إلى سنتين، ثمّ يرتحل عن هذا العالم.. أفلم يرحلوا عنّا؟ فذلك الشخص هو حيّ الآن، بينما أستاذه ارتحل عن الدنيا ولا ينفعه في شيء؛

وهو: [من تلك المسائل التي سيحصل عليها الأستاذ فما الذي سيحصل عليه هو.. فهذه المسائل هي لأجل تذكيرها لأجله، وأيضًا لأجل تخليصك من قطار الفراغ تلك، وسوارك أنت، ولأجل تحويلك القطار الجهل، وفي سبيل بلوغك العلية ولأجل محوك الكمال؛ لكن، حينما نقول: إنّها جيّدة، فإنّك تقول: «لا، وأنا أريدها بذلك الحسن جدًّا، هذا بالعكس فإذا كنت تُعجبك».

كان هناك أحد الأصدقاء من الأطبّاء المشهورين انتقل إلى رحمة الله تعالى، وقد سنحت الفرصة لنتذكّره الآن رحمة الله تعالى عليه؛ وهو الدكتور منوشهر لاري، حيث كان طبيبًا أخصّائيًا في أمراض الدم بمشهد، وكان يُعالج المرحوم العلاّمة بعد إصابته بمرض اليرقان، فكان يقول: «ذات يوم، جاءت عندي امرأة، وأخبرتني بأنّ قلبها يُؤلمها، فقلت لها اسمحي لي الآن بفحصك، من دون أن تُخبريني بالموضع الذي يُؤلمك، ففحصتها، ورأيت بأنّ الألم يرتبط بمعدتها، وليس بقلبها».. عذرًا، فقد قالت إنّ قلبها أو معدتها

تؤلمها، أو بالعكس، ويبدو أنّ قلبها هو الذي كان يُعاني من الألم، لكنّها اعتقدت أنّها معدتها، فقال الدكتور: «فوصفت لها دواء لعلاج القلب»، ثمّ قال: «ذهبتُ صدفة لصيدليّة الإمام الرضا الواقعة في جانب مستشفى الإمام الرضا الكائن في ساحة الإمام الرضا بمشهد، لكي أشتري دواء من هناك؛ فرأيت أنّ تلك المرأة جاءت بدورها إلى هناك، وسلّمت مسؤول الصيدليّة تلك الوصفة، لكنّها كانت تُحدّثه ببعض الأمور، فقال لي ذلك المسؤول فجأة: يا حضرة الدكتور، هل هذه وصفتكم؟ فقلت له: أجل، إنّها وصفتي، فقال لي: إنّ هذه السيّدة تقول إنّها تُعاني من ألم في معدتها، لكنّك وصفت لها دواء لعلاج القلب؛ فقلت: نعم أيّتها السيّدة، إنّ قلبكم هو الذي يُعاني من الألم، وليست معدتكم؛ فقالت لي: من الذي يعلم أكثر: أنا أو أنت؟ فقلت لها: لا.. أنت تعلمين أكثر، فخذي هذه الأدوية الموجودة هنا المختصّة بالمعدة، وتناوليها كلّها!!»؛ وحينئذ، تجدنا ندّعي أحيانًا بأنّنا نفهم الأمور بشكل أفضل؛ فهو يصف لنا الدواء،

ويقول: «يا عزيزي، أنا أرى ما الذي يحدث في نفسك»، لكنّنا نقول له: «لا، أنت لا تفهم».. حسن جدًّا، إذا كنتُ لا أفهم، فاذهب، واعمل بمقتضى وصفتك أنت! وتجدنا نقول أيضًا: «أنا هكذا أرى الأمور، وهكذا أفهمها».

إنّنا، في هذا البحث، لا نودّ أن نصل إلى عدم وقوع الله تعالى في حَوْلَه وقوّته لكي نبيّن أنّ الانتظام الرومانسي، والاتّساق الأدبي، وطريقة الانتظام العائلية، والأسلوب الذي كتبها العظماء بشأن هذه المسألة.

نحن لا نريد أن نحرف الأدب عن مساره الجوهري، أو نقصر أهدافه السامية والعظيمة في أيّ مجال من المجالات على تبيان عجز الله أو انحلاله عن التشبّث بأذيال الأدباء الذين يهبون حياتهم في الدنيا للفداء، أو أن يهبنا دائمًا عناية هذا العظيم في الدنيا والآخرة.

اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد.